الأستاذة وصال حسن

وداع(قصة قصيرة)

... ووقف شامخاً إلا نظرته.. بقيت منكسرة.. فهو رغم صلابته يُخْجله الوداع.. وإمكانية العودة تسخّف هذه اللحظات الدامعة..

الوداع مرهق جداً..

جالت عيناه بنظرة سريعة في المكان، واختفى كشهاب خاطف.. كان وداع زملائه في العمل سهلاً جداً، وحان الآن دور العائلة..

النظرات هنا لا تكفي، ولا حتى الأحضان والقبل، تمنى لو أنه يستطيع أن يسرق لحظة من المستقبل، فيرى زواج أبنائه، أو ربما تخرجهم، صَفَعَتْه صورة الشهيد التي تبثها قناة تلفزيونية بصورة عاجلة، أعادته إلى الواقع، إنسحب من المستقبل مقرراً أن يجعله حقيقة، إذ كيف سيكون مستقبل هؤلاء الأطفال كما يرجو هو بدون تضحية؟ يجب أن يذهب سريعاً، فلا يرق له قلب، ولا تلين مشاعر، سيبقى حاقداً على العدو، غاضباً عليه...

طلب من زوجته الإسراع بالخروج ولم يُعِد النظر إلى الأطفال، بل احتفظ بصورة ضحكاتهم في مخيلته وانطلق...

إعتادت زوجته هذا المشهد، واعتادت أن توصله إلى مكان التجمع.. تحاشى النظر في عينيها.. تحاشى البوح لها بكل ما يختلج في نفسه.. أخذ حقيبته وانطلق مسرعاً..

كان لا بد أن يقول لها الكثير، كان يجب أن يوصيها بالأولاد، وبالمحافظة على الصلاة، كان يجب أن يطلب منها المسامحة عن أي تقصير، وبأنه تركها وحيدة على جبهة الحياة، فجهادها لا يقل قيمة عن جهاده، ولكن السلاح مختلف، هو يحمل البندقية، وهي

ستصنع رجلاً يستحق حمل هذه البندقية، هو يحارب الأعداء، وهي تحارب ظروف الحياة، كلاهما بطل، والحقيقة أن لها الفضل الكبير في استمراره وحثّه على الجهاد...

ماذا يقول لها؟ ولماذا لم يوصها وجهاً لوجه؟

هذا العملاق المغوار الذي يملك قلب أسد، وروح ثائر، وصلابة متمرّد.. يخجل من عينيها، ترهقه دموعها، يلين لرقتها..

ظل وجهها يلاحقه، تارة مبتسماً وتارة خجولاً.. والكثير من المرات كان حزيناً باكياً..

مرّ الوقت سريعاً، وكان لا بد من إغلاق الهواتف، وتركها قبل التوجّه إلى الجبهة..

سمع النداء الأخير: "هيا سننطلق"

فأرسل لها: حبيبتي.. سامحيني

أوصيكِ بالصلاة

وبنفسك، إعتني بها جيداً..

وبالأطفال..

كوني قوية كما عهدتك...

أرسل الرسالة وأغلق الهاتف وانطلق..

إكتمل العدد في الحافلة وحان الموعد..

صاح بأعلى صوته "الفاتحة للتيسير تسبقها الصلاة على محمد وآل محمد"..

استقرّ في مقعده، كان عليه أن يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، كان يفعل ذلك كل يوم مهاتفةً، ولكن لا وجود للهواتف في هذه الرحلة إلى الشهادة، فأخذ يتلو بصوته العذب ما حفظ من سور وآيات طول الطريق.. ولم يشعر أنه غفى لدقائق قليلة، إستيقظ وهو يتذكّر وداع أهله،

صوت أمه وهي تقول: "الله معك، انتبه ع حالك، دير بالك يا ماما، أنا كتير فخورة فيك، الله يسدد ضرباتك..." فيما كان والده مغرورق العينين واقفاً بشموخ وعزة.. فهذا شبله وفلذة كبده.. وضع يده على كتفه وكأنه يتفقد قوة إبنه وصلابته ليطمئن قليلاً..

لم يستطع احتضان أحد منهما، ودّعهما بالنظرات فقط..

تمر هذه الأحداث كلمحة في خياله، تكاد تريق دمعه، لكن صور الأطفال، المجازر، الشهداء، الأبنية المهدمة، الأشجار المحروقة، المسجد الأقصى، القدس! كل هذه الذخائر النفسية تشد عزيمته، تدفعه إلى شوق اللقاء مع بندقيته، تذكر كلامه لصديقه أبي ذر، نحن نريد الأقصى، نريد استرجاع القدس، وهذا لا يكون إلا بالقوة، فما أُخِذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، وماذا إن قدّمنا شهداء؟ الكثير من الشهداء؟ وهل نتوقع أن تأتينا القدس على طبق من ذهب؟ لا بد من التضحيات، ونحن نملك من المعنويات ما سيدهش العالم بأكمله..

سنرهقهم بثبات عقيدتنا، سنستنزف كل قواهم، سندمر نفسياتهم.. فهذا جهاد، إما النصر أو الإستشهاد..

ولعلها تكون الحرب الكبرى وننتهي.. لأننا يقيناً سننتصر في الحرب الكبرى..

نظر من خلال النافذة إلى الخارج، إلى الجبال، والسهول التي حررتها عزائم وبنادق مجاهدين قبله، بعضهم سبقه إلى الجنة، وبعضهم سبقه إلى ساحات الجهاد..

يا الله ما هذا الحماس في داخله! عندما يصل سيقبّل البندقية، ويداعب العتاد، سيحضن رصاصاته واحدة تلو الأخرى، سيقرأ عليهم آيات التسديد، "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)" لن تذهب أي من الرصاصات سدىً فهو يجيد التصويب بشكل لافت.

سينتقم برصاصاته تلك لكل دمعة أم، وجزع طفل، وحسرة أب.. سينتقم.. أقسم بينه وبين نفسه بأنه سينتقم..

تذكر ما أوصى صديقه: " أوصيك بالصلاة على محمد وآل محمد ١٠٠ مرة وإهدائها للسيدة الزهراء عليها السلام على نية حفظ المجاهدين"

شعر برعاية الزهراء له في تلك اللحظة، وبأنها تداعبه بعينيها، وكأنها تقول له لقد قبلت الهدية، وسأقوم بحفظك..

ما همه بعد الآن، يستطيع أن يقتل ألف رجل ورجل، فقط برعاية نظرة، وبندقية..

وأخيراً وصلت الحافلة بهم إلى مقر الإستراحة والتجهيز، لقد كان الطريق طويلاً وشاقاً، هو يعرف المكان جيداً لقد جاء إلى هنا مراراً، وقام بتدريبات عديدة، وألقى فيها محاضراته القيمة، أخبر الإخوة المجاهدين عن رؤاه المستقبلية لأهداف العدو الإستراتيجية، وبالتالي الإقتصادية والسياسية، ومكان القوى العسكرية عند العدو ومكامن الضعف أيضاً، هذه التي يجب علينا استغلالها والتوغل قدماً من خلالها، تذكّر كيف شرح للمجاهدين هنا في هذه القاعة تحديداً أن العدو ينوي حفر ممر مائي موازٍ لقناة السويس، يكون تحت سيطرة الإسرائيلي في فلسطين المحتلة، فليس من مصلحتهم وجود منظمة إرهابية حسب زعمهم "حماس" بجانب هذا الممر، وسيكون هذا الممر ضمن الخط الإقتصادي المدعوم أميريكياً، لذلك تمّ تدمير مرفأ بيروت سابقاً وتوسيع مرفأ حيفا وتنظيمه.

طريقته المميزة في الشرح وإيصال المعلومة بشكل مبسّط جعل كل مَن تعرّف عليه يعشق محاضراته، يستمتع بأسلوبة الليّن، يستأنس بمرور الوقت معه.

وضع حقيبته أرضاً شعر بقوة حدسه وتنبؤاته، هذه النظرة الشمولية للحرب الدائرة لا، ولن تخيفه، في نظره لن يستطيع العدو التقدم براً نحو غزّة إلا بضعة أمتار فقط، وتقدّمه هذا ما هو إلا كمين سينصبه الغزاويون لاستدراج العدو نحو المقبرة، حيث إن "حماس" مسيطرة عسكرياً على الأرض وتملك زمام الأمور.

مشى نحو اللوح الذي كان يشرح عليه للإخوة، إسترجع تلك اللحظات الحماسية عندهم عندما أخبرهم باستخفافه بالعدو، وبأنه ضعيف خاوٍ، وبأن المقاومة قد أعدت العدّة، وتملك من المعنويات والعتاد والاستعدادات ما يكفي لسحق العدو سحقاً، ولكنها تنتظر اللحظة المناسبة إقليمياً ليس محلياً فقط.

تذكر صديقه الشهيد، كم كان متحمّساً للجبهة، وكيف أنه رآه بكامل جهوزيّته ووجهه يشعّ بنور غريب، وابتسامة لا تفارق وجهه، وكيف حاربا معاً وطهّرا موقعاً من الأعداء، ورفعا علم الحزب عالياً..

أصيب صديقه حينها في خوذته، وأخبره بأنه قد أصيب، ولكنه اعتقد بأنه يمزح، فكيف لرصاصة أن تخرق الخوذة وهو لا زال واقفاً ويتحدث بثبات، وما هي إلا لحظات وإذا به يسقط أرضاً، لقد فقد توازنه ولكنه لم يصب بشيء آخر حينها...

خالجه شعور الشفقة على صديقه، وبأنه يجب أن يكون أول مَن يقدم له المساعدة، أنّبه ضميره لأنه لم يصدق بداية بأنه أصيب بطلقة، تذكر أنه لم يكن باستطاعته حينها أن يتحرك من مكانه قيد أنملة، فهو المستهدف الأول، وهو القناص الأول الذي أرهق العدو واستنزف كل ذخيرته، تذكر صوت أزيز الرصاص حول رأسه، وبأن ذلك الأزيز كان يطربه ويزيده صلابة وعزماً، سمفونية الرصاص تلك أصبحت مألوفة لديه، بل ومحبّبة أيضاً، تؤنسه وتسليه، فكلما ارتفع عدد رصاصاتها، كلما ازدادت عزّته بنفسه، وثقته بأن الروح لا تفارق الجسد إلا عندما يحين الأجل.. ما زاده إيماناً بعقيدته ونهجه الجهادي..

كان النصر حليفهما في تلك المعركة، وغيرها الكثير، ولكن جاءه خبر استشهاد صديقه لاحقاً في معركة شرسة مع الأعداء، لم يستطع هو المشاركة فيها لظروف حالت دون ذلك.

داعب بعينيه المكان الذي كان يجلس فيه الشهيد، أغمضهما بشدة وكأنه يحضنه بجفنيه، يعيد رسم صورته، يتأملها للحظات، يستحضر آخر كلمات كانت بينهما بعد تحرير الموقع، ويستحضر روحه لترافقه أيضاً في هذه المعركة، وفي كل المعارك القادمة، يريد منه أن يشاركه كل انتصاراته، وأن يعتذر له عن غيابه لحظة استشهاده، أهدى لروحه الطاهرة سورة الفاتحة، وذهب ليستريح في المكان المخصص له.

هناك على أرض المعركة نسي زميله بعض العتاد، لم يخبر أحداً بذلك، ولكن عند تسليم الأسحلة تبيّن ذلك للمستلم، فكان هو المسؤول عن إعادة ما فُقِد، وبعد سؤال وجواب، واستبيان بعض آراء الذي تواجدوا هناك قال أحدهم بأنه لمح شيئاً ما، ولكن لم يكن بمقدوره التوقف لشدّة وطيس المعركة..

قرّر الذهاب وحيداً لاسترجاع المفقودات، فهي أمانة عنده، ومثله لا يتهاون أبداً في ردّ الأمانة سالمة..

ناجى ربه خلال المسافة الطويلة التي سلكها سيراً على الأقدام بحثاً حثيثاً، طلب من إمام زمانه مساعدته، قرأ له الفاتحة، أيقن بأنه سبجد ضالّته، فوجدها تلمع تحت أشعّة الشمس الحارقة، تلمع تحت زهرة برية جميلة، ذكّرته بزوجته..

في طريق العودة مشياً، تذكّر المرّة الأخيرة التي ذهب فيها إلى الجامعة، كتلميذ في صفّ إبتدائي حمل حقيبة كتب صغيرة على ظهره ومشى مزهوّاً بنفسه، فمعلوماته في مادة التاريخ تفوق معلومات الدكتورة المحاضِرة بكثير، وقدرته على إيجاد العلاقة بين الأحداث التاريخية والواقع المعاش فسّرت ما كانت تهدف إليه محاولات الدكتورة التي باءت بالفشل في

كل مرّة، حيث راح يشرح لزملائه المادة بطريقة مبسّطة، سهلة، وسلسة، أعجبت حتى أستاذته وأسعدتها لأنه أوصل المعلومة بشكل دقيق..

هكذا هو.. شامخٌ كالجبل خلفه، صامدٌ كصموده، متشعّب، ممتدّ، متّصلٌ أيضاً، ما أصعب الصعود إلى قمّته.. فهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد جهد متواصل، وسهر ليالٍ طويلة.. فالجهاد ليس فقط حمل السلاح، الجهاد كلمة طيبة، الجهاد كلمة حق، الجهاد فعل، مناصرة مظلوم، قضاء حاجة مؤمن، تذليل العقبات أمام الجميع..

هكذا هو...

ما أشدّ حرارة شمس هذا اليوم، وما خفّف وطأتها عليه إلا تذكّره لبطلة كربلاء، التي سيقت مع الأطفال حفاة عطاشى في أشد الأيام حرارة وقيظاً.. تمنى لو حمل عنها القليل، وتمنى الكثير من التضحيات...

جلس قليلاً ليرتاح تحت ظل شجرة وارفة، وضع يدة على جيبه يتحسس الأمانة التي قطع كل هذه المسافة ليعيدها سالمة، فوجدها لا زالت في مكانها آمنة...

وأخيراً وصل إلى المعسكر وصول المنتصر الظافر، وكما يليق به أن يكون، هذا المتفاني من أجل الجميع، الحريص على إتمام العمل الجماعي بأكمل وجه، لقد أتم عمله الجهادي على أحسن صورة..

فهو في العمل كما هو في الجهاد، استطاع بأيام قليلة أن يكسب محبة الجميع، وبعد أشهر نال الثقة، ثقة الجميع أيضاً..

الدائرة التي يعمل فيها هي عبارة عن مجتمع لبناني مصغّر، فيه من مختلف الطوائف والمذاهب والأديان، وكلهم يحبه ويحترمه ويثق به، بل ويطلب مساعدته في معظم الأحيان، حتى المدير صار يعتمد عليه كثيراً ويعمل بآرائه ومقترحاته..

فتراه يتنقل من مكتب إلى آخر، يقضي حوائج العاجزين عن إتمام أعمالهم، ينجز لهم المعاملات الصعبة، ويكمل ما قصروا عن إكماله، يقوم بعمل زميل مضطرّ للتغيب لقضاء عمل معين.. استطاع أن يستحوذ على مفاتيح كل المكاتب بعد أن استحوذ على قلوب أصحابها..

واستطاع بأقل من سنة أن يُخرج حقد سنين من قلوب بعض المتخاصمين، ويقرّب المسافات بينهم،..

وضّح سوء الفهم حيناً، وقرّب وجهات النظر أحياناً.. حتى إنه استطاع بذكاء وطيبة، بنية حسنة وقربة إلى الله أن يُخرج من النفوس أجمل صفاتها الإنسانية، تحوّلت الدائرة إلى محبّين، متفانين، معطائين، متعاونين..

حتى صار تغيّبه ليوم واحدٍ يُحدث فرقاً كبيراً، وفراغاً عند الجميع...

لقد أنجز كل أعماله قبل المجيء إلى المعسكر، لم يؤجل يوماً معاملة لمشترك، فقد كان يستعمل سيارته الخاصة خارج دوام العمل لتيسير أمور المواطنين..

إقترب موعد العودة، لقد نال التدريبات الكافية للمؤهلات اللازمة في الحرب الكبرى..

لكنه سيعود، تبدد الحلم. حلم كل مجاهد أن ينال الشهادة..

يؤلمه أنه لا زال يتنفس هواء الأحياء، مشتاق هو لريح الجنة.. لا يكفيه جهاده المجتمعي، لم يلتفت يوماً إلى ما صنعه في مجتمع العمل، فهو لا يدرك أنه جهادٌ لا يقل قيمة عند الله عن الجهاد في الجبهة، أن تصلح حال إنسانٍ وتحيي فيه روح الإنسانية الحقة هو أكبر قيمة عند الله من قتلك لعدوّ، فمَن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً، فما بالك بمَن أحيا نفوساً؟! فلا يعلم أجره إلا الله..

هيا تجهزوا للإنطلاق!

سمع صوت المسؤول عن المعسكر وهو يناديهم ليودعهم ويشكرهم على أدائهم الرائع، ويثني عليهم اندفاعهم واستعدادهم الكامل لتلبية النداء في أي وقت..

في طريق العودة لم يفكّر إلا باللقاء، العائلة، زوجته، أولاده.. تذكر اللقاء الماضي، فبعد أن عبر الحدود واستطاع أن يستعمل هاتف السائق، إتصل بزوجته وأخبرها لملاقاته عند أهله، وبعد أن سلم على الجميع ظلّ ينتظر في الشرفة قدومها من الجنوب إلى بيروت مصطحبة الأولاد، ينظر في كل السيارات القادمة، يتحقق في الوجوه..

وأخيراً أطلّت.. كاد أن يطير قلبه من مكانه، ركض متوجهاً نحوهم، وطال العناق..

كان الخجل مسيطراً عليه أمام والديه، لم يستطع أن يخرج ما في صدره من شوق وحنين..

وحين اختليا، أخرج الزهرة البرية الجميلة التي ظلّلت الأمانة في أرض المعركة، والتي ذكرته بزوجته، وأهداها إياها..

في المقلب الآخر كان من الممكن جداً أن يكون اللقاء مع الخبر:

... بينما كانت زوجته تتنظر أن يتصل بها لملاقاته عند أهله، ينتابها توتر شديد، وقلق غير مسبوق، تكمل تحضير الأطفال وتدقق في أناقتهم، تنظر كل دقيقة في هاتفها وتتفقّد ما إذا جعلته في الوضع الصامت سهواً.. هل هناك رسالة غير مقروءة.. هل هناك اتصال لم تسمعه...

تكمل استعداداتها... ويكمل القلق سيطرته عليها.. يصرخ إبنها بفرحٍ شديد.. ماما!..

"هيدا بابا هون بالتلفزيون"...